تاريخ تدوين البلاغة وعوائق تعليمها

د . سعيد بوخاوش

ـ جامعة البليدة 2

الملخص :

كانت اللغة ملكة راسخة على ألسنة العرب تمكنهم من التعبير الفصيح العفوي، بعيدا عن الصناعة اللغوية ، وكان الأوائل يرون أن اللغة العربية للعرب بالطبع والقوة ؛ و لكن هذه الملكة و السليقة و السجية اللغوية عند العرب بدأت تتلاشى بعد القرن الرابع الهجري ، فظهرت حركة التأليف في كل علوم العربية بما فيها علوم البلاغة ، وهذا القال يتناول جملة من المظاهر و العوائق التي ميزت المنظومة التأليفية في تعليمية البلاغة، أوردتها في محورين رئيسيين هما الجانب التاريخي لتطور التأليف في البلاغة ثم المعوقات الأساسية التي تحول دون حصول الذوق اللغوي عند المتعلم و حاجة تعليمية اللغة اليوم إلى إعادة النظر في تحقيق الملكة .

Résumé

La langue était un patrimoine bien ancré chez les premiers arabes, qui leur permettait de s'exprimer spontanément dans un langage soutenu loin de tout maniérisme, et la considérait comme étant la leur de par sa nature et par sa force. Mais cette maitrise, cette « innéité » de la langue a commencé a ce dissiper après le 4ème siècle de l'hégire, ce quia mené à l'apparition d'un mouvement d'édition dans toutes les sciences de la langue y compris la rhétorique. Ce présent article traite d'un ensemble d'aspects et d'entraves notables dans le système éditorial de la didactique de la rhétorique, et

qui sont exposés selon deux axes principaux : le côté historique de l'évolution éditoriale en rhétorique et les obstacles majeurs qui font en sorte d'empêcher l'apparition d'un goût pour la langue chez l'apprenant d'où la nécessité aujourd'hui pour«la didactique de la langue » de revoir ce que l'on entend par la maitrise de la langue.

الحاجة إلى تدوين علوم اللغة :

من المعلوم أن اللغة كانت ملكة راسخة على ألسنة العرب تمكنهم من التعبير الفصيح العفوي، بعيدا عن الصناعة اللغوية ، وكان الأوائل يرون أن اللغة العربية للعرب بالطبع والقوة [1] ؛ و لكن هذه الملكة و السليقة والسجية اللغوية عند العرب بدأت تتلاشى بعد القرن الرابع الهجري، وذلك لمخالطة العرب العجم المستعربين، و لتأثر البيئة العربية بلغات أخرى " فصار الناشئ من الجيل يسمع في العبارة عن المقاصد كيفيات أخرى غير الكيفيات التي كانت للعرب ، فيعبر بها عن مقصوده لكثرة المخالطين للعرب من غيرهم ، و يسمع كيفيات العرب أيضا ، فاختلط عليه الأمر، و أخذ من هذه وهذه ، فاستحدث ملكة ، وكانت ناقصة عن الأولى ، وهذا معنى فساد البيان العربي "[2].

ومن هذا المنطلق حاول الغيورون على اللغة جمعها و تدوينها ، ووضعوا لها شروطا ومقاييس دقيقة، محددة زمانا ومكانا .. و رغم ذلك لم يستطيعوا الحد من تطور اللسان العربي ، فظهرت بذلك لغات خاصة بالحواضر كمرحلة أولى من التحول اللغوي .

ثم بدأت العجمة تصل اللغة و ظهرت اللهجات المحلية في الأقطار العربية إلى غاية عصر المؤلف .

1. أهمية البلاغة :

من نافلة القول هنا أن أذكِّر بوظائف اللغة كونها وعاء للثقافة ، و أداة الاتصال والترابط بين الأفراد والجماعات ، ووسيلة التعبير عن الأفكار والمشاعر ..

وتأتي البلاغة لتحقق بعضا من وظائف اللغة العربية لدى الطلاب ، فهي مادة تكشف للطلاب عن دقائق اللغة العربية وأسرارها و تنمي فيهم حاستي التذوق و النقد ، و القدرة على المفاضلة بين الأساليب ؛ لذا فلعلم البلاغة أهمية كبيرة في تعليمية اللغة العربية ، فالبلاغة هي العلم الذي يضع الأسس الجمالية لتذوق الأدب الجيد، لما تقوم به من الكشف عن القوانين العامة التي تتحكم في الاتصال اللغوي ، فهي تقوِّم الملكات ، وترشد الذَّوق وتهدي الموهبة الأدبية في نفس المبدع بجانب أنها تساهم في نظم الكلام بصورة صحيحة .

كما تعد البلاغة أحد العلوم الأساسية في علم اللغة ، ولها دورها الأساسي في إدراك المعنى وفهمه، فهي تعيننا عل بناء المعاني الكامنة في نفوسنا في أحسن صورة .

إن الغرض من تدريس البلاغة و البيان يتجلى في تمكين الناشئة من استعمال اللغة في نقل أفكارهم إلى غيرهم بطريقة تسهل عليهم إدراكها وتمثلها ، و ذلك من خلال فهم خصائص البيان وإدراك ما فيها من جمال.

إن دراسة البلاغة تساعد المرء على فهم أسرار البلاغة القرآنية ، ومواطن الإعجاز في القرآن الكريم، وذلك من جهة حسن التأليف و براعة التركيب ، و ما يتضمنه من إيجاز بديع و اختصار لطيف ، وما فيه من حلاوة، و سهولة كلام ، و عذوبة وسلاسة إلى غير ذلك من محاسنه ، و ليست للبلاغة أهداف دينية فقط ، وإنما لها أهداف نقدية تتمثل في التذوق والوقوف على أسرار الكلام ، وتميز بين

الجيد والرديء من منثور الكلام و منظومه ، و لها هدف نقدي ينعكس على صناعة الأدب والتأليف فيه .

وفي هذا المقال لا أتطرق لماهية البلاغة وتعريفها في اللغة و الاصطلاح ، وعلاقتها بالبيئة العربية، و القرآن والحديث والتراث ، والكلام عن وصف البليغ عند العلماء ، وحاجة العرب للبلاغة ، ومفهوم الإعجاز .. فهذه المسائل و غيرها موجودة في كتب النقد و البلاغة ؛ و لكن سأخصصه للحديث عن نشأة البلاغة ومراحل التأليف فيها ، لأبين ثراء المكتبة البلاغية من جهة ومعوقات التدريس من جهة ثانية .

2. نشأة البلاغة العربية ومراحل التأليف فيها :

- **نشأة البلاغة العربية:**

نشأت البلاغة بشكل فطري في العصر الجاهلي ، و تناولها العرب بفطرتهم الصافية وسليقتهم العربية ، وأكدت ذلك ما احتوته كتب الأدب و النقد ، و قد انتشرت الأسواق الأدبية في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام ، وكان الشعراء يترددون عليها ، فيتبارون بالشعر فيما بينهم في هذه المجالس الأدبية ثم يحتكمون فيما بينهم ، فكانت فنون الأدب هذه و ما يدور حولها من ملاحظات عديدة هي البذور الأولى في حقل البلاغة العربية [3]

ثم جاء الإسلام ، فكان للقرآن الكريم الأثر الكبير في ظهور البلاغة بهذا الشكل عند العرب ، وإذا كان القرآن من العوامل ذات الفائدة في ظهور البلاغة بهذا الشكل ، فإن الحديث النبوي هو الآخر كان من الروافد الأساسية من حيث الاعتناء به باعتباره مصدرا من مصادر التشريع [4].

و هناك أسباب أخرى لها دورها في إثارة هذا النشاط البلاغي و ظهوره ، فقد كان للاطلاع على ثقافات الأمم الأخرى وآدابها كالهند و اليونان و بلاد فارس ..

الأثر الملموس في هذا الظهور ، إذ تركت حركة الترجمة هذه أهمية جليلة في حياة البلاغة العربية .[5]

و من المعلوم أن العهد العباسي شهد صراعات نشبت في القرن الثاني الهجري بين أنصار المحافظة والتجديد ، و من آثار هذه الصراعات ظهور مصنفات كثيرة ذات فائدة كبيرة في البلاغة العربية ، كسرقات أبي نواس ، وبديع ابن المعتز و موازنة الآمدي ، و وساطة القاضي الجرجاني..

- **مراحل التأليف في علم البلاغة و أهم المصنفات [6] .**

1 ـ كان القرن الثاني الهجري أول عصر شهد نشأة آراء كثيرة أصيلة و مترجمة حول البلاغة وعناصرها ، بعد فساد الملكات ، وقد أخذ العلماء في بحث أصول بلاغات العرب ، وفي تدوين آرائهم في معنى كلمة البلاغة و الفصاحة . و أهم ما يؤثر من ذلك :

وصية بشر بن المعتمر ـ من زعماء المعتزلة وتوفي نحو عام 210 هـ ـ في البلاغة ، و تفسير ابن المقفع للبلاغة ، و تعريف العتابي لها ، و وصية أبي تمام للبحتري تدخل في هذا الباب ، و يقول البحتري :"خير الكلام ما قل ودل ولم يمل .. " و في البيان والتبيين للجاحظ تحديد للبلاغة كما يراها حكيم الهند ، ويقسمها الكندي فيلسوف العرب المتوفى عام 260 هـ إلى ثلاثة أنواع : "فنوع لا تعرفه العامة و لا تتكلم به ، و نوع بالعكس ، و نوع تعرفه و لا تتكلم به و هو أحمدها" و ذكر بزر جمهر حكيم الفرس فضائل الكلام ورذائله في كلمة مترجمة رواها صاحب الموازنة . إلى آخر هذه الكلمات والآراء .

2 ـ ثم ألفت بعد ذلك كتب تجمع كثيرا من الآراء و الدراسات الموجزة حول البلاغة و بحوثها، و من هذه الكتب : مجاز القرآن لأبي عبيدة(ت:207 هـ) و الفصاحة للدينورى (ت:280 هـ) و التشبيه و التمثيل للفضل بن نوبخت ، و

صناعة الكلام للجاحظ ، ونظم القرآن و التمثيل له أيضا ، و البلاغة و قواعد الشعر للمبرد .. و في الكامل إشارات لمسائل كثيرة في البلاغة ، و كذلك الرسالة العذراء لابن المدبر ، و البلاغة للحراني ، و قواعد الشعر لثعلب و عليه شروح كثيرة ، و البلاغة و الخطابة للمروزي، و المطابق و المجانس لابن الحرون و تهذيب الفصاحة لأبي سعيد الأصفهاني ، و إعجاز القرآن في نظمه و تأليفه للواسطي المعتزلي (ت 306 هـ)، وصنعة البلاغة للسيرافي(ت 368 هـ). ونظم القرآن لابن الإخشيد ، وكذلك لابن أبي داود (ت316 هـ) وكتاب الرد على من نفى المجاز في القرآن للحسن بن جعفر ... ومن هذه الكتب أيضا المفصل في البيان ، والفصاحة للمرزباني (ت : 378 هـ).

على أن أهم الكتب التي تناولت بعض مسائل البلاغة بالبحث ، أو التي ألفت فيها خاصة هي: كتاب جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ، ففي مقدمته بحوث موجزة طريفة تتصل بالبلاغة . وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، و هو أهم ما ألف في هذا الطور من كتب تتصل ببلاغات العرب نثرا و شعرا ، و تتعرض لتحديد البلاغة و ما حولها من آراء كانت ذائعة في عصر الجاحظ، و فيه كثير من بحوث البلاغة ، فهو يعرف الاستعارة ويتكلم على السجع ويشير إلى التفصيل و التقسيم و الاستطراد و الكناية و الأمثال و الاحتراس و القلب و الأسلوب الحكيم . والجاحظ أول من تكلم على المذهب الكلامي و يرى البلاغة في النظم لا في المعاني و هو ما ذهب إليه ابن خلدون ، و الجاحظ يشيد بالإيجاز ، كما يدعو في البيان كثيرا إلى ترك الوحشي والسوقي، ويحث على الإفهام و الوضوح ، و على ترك التعمق و التهذيب في صناعة الكلام ، إلى غير ذلك من شتى ما دونه في البيان.. ولا يضير الجاحظ أن كانت دراساته موجزة مفرقة كما يقول أبو هلال ، فهي على كل حال ذات أثر كبير في نشأة البيان ، و هي التي أوحت إلى كثير أن

يعدوا الجاحظ الواضع الأول لعلم البيان . ومن الخطأ التهوين بأثر الجاحظ في البيان .

3 ـ وقد بدأ التدوين في البلاغة على يد ابن المعتز الذي ألف كتابه القيم "البديع" حيث كانت البلاغة قبله تختلط بغيرها من العلوم حيث يواجه من يبحث في البلاغة أو يسعى إلى تعلمها المشقة الكبيرة وحال ذلك بينه وبين تذوق البلاغة تذوقا أدبيا.

ثم ثعلب الذي ألف كتابه "قواعد الشعر" ، وبعد قليل ظهر نقد النثر كما ظهر نقد الشعر لقدامة بن جعفر المتوفى عام 337هـ . ثم كتاب الصناعتين لأبي هلال المتوفى عام 395 هـ ، ثم كتاب الموازنة للآمدي ، والوساطة للجرجاني ، وإعجاز القرآن للباقلاني ، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، و العمدة لابن رشيق و هما أكثر الكتب اتصالا بالبلاغة .

4 ـ ثم جاء بعد ذلك أبو بكر عبد القاهر الجرجاني شيخ البلاغة العربية والمتوفى عام 471 هـ فألف في البلاغة كتابين جليلين هما :

- ـ أسرار البلاغة ، وفيه دراسات واسعة تتناول بحوث علم البيان من تشبيه ومجاز واستعارة وفيه شرح للسرقات وبعض ألوان البديع .
- ـ دلائل الإعجاز ، وفيه بحوث كثيرة هي أصول علم المعاني . كما أنه تحدث فيه عن الكناية وعن التمثيل والمجاز والاستعارة والسرقات أيضا .

"وليس هناك اختلاف عند البلاغيين على أن البلاغة حققت أوج ازدهارها وقوتها على يد الشيخ الجرجاني ، ولكنها أصيبت بالقصور والضعف على يد علماء غير أدباء اهتموا أكثر ما اهتموا في قواعد اللغة والتعريف بمصطلحاتها من دون تركيز على الذوق الأدبي السليم لذا أصبحت البلاغة على يد هؤلاء خالية من الأصالة ."[7]

5 ـ وبعد عصر الجرجاني بحث الزمخشري في تفسيره ، و الرازي في كتابه " نهاية الإعجاز " ، و ابن الأثير صاحب المثل السائر ، و بدر الدين بن مالك صاحب المصباح ، و التنوخي صاحب "الأقصى القريب " ، وكثير من العلماء في البلاغة والفصاحة .

ومن أهم هؤلاء العلماء في هذا الطور أبو يعقوب السكاكي المتوفى عام 626 هـ تلميذ الحاتمي ، الذي ألف كتابه "المفتاح" ، و جعله أقساما و خص البلاغة بالقسم الثالث منه ، وقسمها إلى ثلاثة أقسام : المعاني ـ البيان ـ البديع . و بذلك تميزت علوم البلاغة و مباحث كل علم منها بالتفصيل .

و تغلب الفلسفة و المنطق على السكاكي إلى حد كبير ، من حيث كان يغلب الذوق والطبع على عبد القاهر .

و بذلك تنتهي مراحل التأليف و الابتكار في بحوث البلاغة وتدوينها تدوينا كاملا .

6 ـ وجاء الخطيب القزويني المتوفى عام 739هـ فألف في البلاغة كتابيه : تلخيص المفتاح والإيضاح . وقد ألف الإيضاح ليكون كالشرح لتلخيص المفتاح وجمع فيه كثيرا من آراء عبد القاهر و السكاكي في شيء من التنظيم و الشرح .

و على متن التلخيص كثرت الشروح و الحواشي والتقارير وفي مقدمتها الأطول للعصام ، والمطول للسعد و شروح التلخيص و سواها ... وهذه أهم كتب البلاغة وشروحها في هذا العهد:

قوانين البلاغة لعبد اللطيف البغدادي(ت: 629 هـ)، و التبيان لابن الزملكاني (ت:651 هـ) ، والمعيار للزنجاني (ت:654 هـ)، و بديع القرآن لابن أبي الأصبع (ت: 654 هـ) ، والفوائد الغياثية للعضد (ت: 756 هـ) و شرحها الكرماني(ت : 786 هـ)، و التبيان لشرف الدين الطيبي (ت: 743 هـ) ، و الطراز ليحيى ابن حمزة العلوي (ت : 749 هـ) ، وعروس الأفراح للسبكي (ت:

773 هـ) والسمرقندية للسمرقندي وهي رسالة في الاستعارات ، وتوفي السمرقندي عام 880 هـ .

7 ـ شروح المفتاح للسكاكي .

(أ) شرحه بتمامه المولى حسام .

(ب) وشرح القسم الثالث منه الشيرازي(ت: 710 هـ) في " مفتاح المفتاح " . والترمذي و هو معاصر للشيرازي ، والخلخالي (ت : 745 هـ)، والسعد (712 ـ 791 هـ) ، والسيد (ت: 816 هـ) في " المصباح " الذي ألفه عام 803 هـ ، و عماد الدين الكاشي ، وله رسالة في حل المتشابهات التي أوردها الخطيب على المفتاح ، و الأبهري سلطان شاه، وطاشكبري زاده (ت:962 هـ)، و شيخ زاده (ت: 951 هـ) والشربيني (ت: 769 هـ) ، و الخوارزمي و قد فرغ منه عام 642 هـ ، و الفناري(ت: 834) و له على شرحي السعد و السيد تعليقات ، وابن كمال باشا (ت: 940)، وسواهم .

(ج) واختصر القسم الثالث منه :

المعانيجي (ت: 990 هـ)، و القزويني (666 ـ 739 هـ)، و الإيجي (ت: 756 هـ) في الفوائد الغياثية ، و بدر الدين ابن مالك (ت: 686 هـ) في " المصباح في اختصار المفتاح " ونظم " المصباح " المراكشي ، ثم شرحه وسماه " ضوء المصباح على ترجيز المصباح " و اختصر هذا المختصر ابن النحوية (ت: 718 هـ) ، و سماه " ضوء المصباح " ، ثم شرحه في مجلدين في كتاب أسفار المصباح عن ضوء المصباح ، ولمحمد ابن خضر " مصباح الزمان في شرح المصباح " .

هذا و قد ألف السعد " المطول على تلخيص المفتاح للخطيب القزويني " و انتهى من تأليفه عام 748 هـ، كما انتهى من تأليف مختصر المطول عام 756 هـ .. و فرغ ابن يعقوب من تأليف شرحه على مختصر السعد في مكناسة سنة 1108 هـ .. و انتهى ابن السبكي من تأليف شرحه " عروس الأفراح " على مختصر السعد في

جمادى الأولى عام 758 هـ .. وانتهى الدسوقي من كتابة شرحه على مختصر السعد في شوال عام 1210 هـ .

8 ـ وهناك مؤلفات أعقبت هذه المرحلة **مثل الرسالة السمرقندية في الاستعارات** لصاحبها أبو القاسم بن أبي بكر الليثي السمرقندي [8] ، والرسالة السمرقندية من أشهر الرسائل التي ألفت في هذا العلم و قد أقامها على ثلاثة عقود الأول في المجاز والثاني في تحقيق معنى الاستعارة بالكناية ، والثالث في تحقيق قرينة الاستعارة بالكناية .

و قد كتب لهذه الرسالة من الشهرة ما جعلها تنال عين الرضا عند كل من و قف عليها من علماء الأمة بعد السمرقندي، فتناولوها بالشرح و التحشية و الاختصار و النظم ، مخلفين لنا في ذلك مكتبة في الدرس البلاغي الغني مادة و فكرا ، و الناظر في تاريخ بروكلمان ، و فهارس المخطوطات العربية و غيرها يتبين له ذلك .

وسأختصر هنا هذه القائمة :

1 ـ الشروح :

- شرح رسالة الاستعارات لعصام الدين إبراهيم بن محمد بن عربشاه الحنفي الأسفراييني (ت: 951هـ) ، وعلى هذا الشرح حاشية ياسين بن زين الدين العليمي (ت : 1061هـ) و قد اعتمدهما الصاوي في شرحه التحفة.و هناك حواشي كثيرة جدا .مثل حاشية أحمد فوزي ، المسماة الحاشية الجديدة على عصام الفريدة ، وحاشية الصبان وحاشية الأنبابي ..
- شرح رسالة الاستعارات لعبد الملك بن جمال الدين بن صدر الدين بن عصام الدين الأسفرائيني (ت: 1037هـ)

- شرح محمد بن محمد الدمياطي (ت: 1140) المسمى : أوضح الإشارات إلى رسالة الخواجة أبي القاسم السمرقندي في الاستعارات .
- عقد الدرر البهية في شرح الرسالة السمرقندية (الشرح الكبير) لأحمد بن عبد الفتاح الملوي المجيري (ت:1181هـ) ، وكلك مختصر عقد الدرر (الشرح الصغير) للملوي أيضا . و قد أقيم على هذا المختصر غير حاشية شأنه شأن شرح العصام ، و من بين هذه الحواشي التي نجد الإشارة إليها في رسالة الصاوي نذكر :

حاشية أبي العباس أحمد بن يونس المصري الخليفي (ت : 1209هـ) الموسومة بنتائج الفكر وثمر المؤلفات.

حواشي محمد بن محمد بن أحمد الأزهري المعروف بالأمير (ت : 1232هـ) وغيرهما .

- نحور الحور العين لأحمد بن إبراهيم بن عبد الله الشرقاوي (ت : 1214هـ)
- زهر الرياض الزكية الوافية لمضمون السمرقندية لعبد الحافظ بن علي المالكي (ت:1303هـ) .

2 ـ الحواشي على السمرقندية :

- حاشية حسن بن محمد العطار (ت:1250هـ)
- حاشية إبراهيم بن محمد الباجوري (ت:1277هـ) وعليها تعليقات لغير واحد من العلماء.
- حاشية أبي عائشة محمد بن محمد الدمنهوري (ت: 1288هـ) المسماة بلقط الجواهر السنية على الرسالة السمرقندية .

- حاشية أحمد زين دحلان (ت:1304هـ)

3 ـ المنظومات:

نظم أحمد بن عبد الفتاح الملوي صاحب الشرحين الكبير و الصغير و أول نظمه [الرجز]:

ومفرد المجاز و هو كلمة في غير ماهي له موضوعة

و قد شرح الملوي نظمه .

نظم محمد عياد الطنطاوي (ت: 1278هـ) وأول نظمه [السريع] .

حمدا لربي مانح البيان فاتح باب العلم للأذهان .

نظم محمد عياد الطنطاوي (ت:1278هـ) مع حاشية على هذا النظم .

4ـ المختصرات :

مختصر محمود بن حيدر الهكاري (من علماء القرن 11) مع شرح له على هذا المختصر.

مختصر أحمد الدردير (ت: 1201هـ) الموسوم بتحفة الإخوان في علم البيان ، وقد شرحه بنفسه .

وعلى هذا الشرح حاشية الإمام الصاوي المصري (ت : 1241هـ) وعلى حاشية الصاوي تعليقات بعنوان : تبيان البيان لعلي بن حسن البولاقي .

ثم ظهرت في البلاغة كتب الحواشي و التعليقات و التقريرات ... ، ثم جاء العصر الحديث فظهرت عدة مؤلفات في البلاغة فيها لون من التهذيب والتنسيق وحسن الأخذ و الاختيار ، ثم ظهرت الدراسات اللغوية الحديثة مع ظهور اللسانيات وفروعها المختلفة ، وظهور اتجاهات النقد الأدبي الحديث ، فأفاد

العلماء منها أيما إفادة ، فهناك من أعرض عن علم البلاغة القديم و ارتمى في أحضان الأسلوبية الغربية و علم الدلالة و السيميائية بمختلف اتجاهاتها ..، و هناك من بقي محافظا على البلاغة الأصيلة متشبثا بها ، وهناك من مزج بين هذا وذاك في الاتجاه التوفيقي .

وجاء بعدها عصر الرقمنة الذي يحتاج إلى إيجاد كفاءات تقوم بحوسبة علوم البلاغة في مكتبات رقمية خاصة توضع بين يدي الطلبة و الباحثين ، وتغنيهم عن مشقة السفر ، وهذا دور مخابر اللغة و علم المكتبات . وبذلك تنتهي مراحل التأليف في البلاغة منذ نشأتها حتى الآن.

3. المتون و الشروح و الحواشي و التقريرات :

إن الناظر في الدراسة التارخية للبلاغة يتبين له أن التأليف في علومها كان على أشكال متعددة و ذلك بعد أن كانت تؤخذ البلاغة من النصوص الأدبية ، و هذه الأشكال هي : المتون و الشروح و الحواشي و التقريرات .

المقصود بالمتن و الشرح و الحاشية و التقرير [9]:

المتن : مصطلح يطلق عند أهل العلم على مبادئ فن من الفنون جمعت في رسائل صغيرة خالية من الاستطراد و التفصيل والشواهد و الأمثلة إلا في حدود الضرورة مثل : تحفة الإخوان للدردير .(رسالة في علوم البلاغة)

الشرح : عمل يتوخى فيه توضيح ما غمض من المتون، و تفصيل ما أجمل منها ، و هو يتراوح بين الطول و القصر ، السهولة و العسر ، و فيه الوجيز و الوسيط و البسيط ، مثل : شرح الدردير للتحفة .

الحاشية : إيضاحات مطولة دعت إليها ظاهرة انتشار المتون و الشروح ، و قد قصد منها حل ما استغلق من الشرح ، وتيسير ما يصعب فيه ، و استدراك ما يفوته ، و التنبيه على الخطأ، و الإضافة النافعة ، و زيادة الأمثلة و الشواهد ، و ذلك مثل حاشية الصاوي على شرح التحفة .

التقرير : هو بمثابة هوامش كان يسجلها العلماء و المصنفون على أطراف نسخهم ، مما يعن لهم من الخواطر و الأفكار على نقطة معينة أو نقاط متعددة ، و ذلك أثناء قيامهم بالتدريس من الشروح و الحواشي ، مثل : تقرير البولاقي على الحاشية الصاوية على شرح الدردير .

و هذا النمط من التأليف له عدة إيجابيات و عليه عدة مآخذ .

4. واقع علم البلاغة دراسة وتدريسا و معوقات تحصيلها :

و مما سبق يتبين للمتتبع لمؤلفات المتأخرين في علوم العربية ـ لاسيما علوم البلاغة التي هي محل الدراسة ـ أن هذا العلم قد خرج عن الهدف الذي تأسس لأجله في بداية عهده ؛ فالدارس قد يعيش مع هذه المؤلفات سنوات طويلة لا يعتدل لسانه ولا يستقيم بيانه ، و إذا أردنا أن نعرف الأسباب التي أدت إلى ذلك تبين لنا أن الملكة اللسانية غير علوم صناعة العربية ، ويمكن أن نوجز أهم الصعوبات التي يمكن أن تعيق طالب علم البلاغة لتعلم هذا العلم و تصده عن الحذق فيها منها:

- **المطولات :**

وهذه المؤلفات "تموج بالفروع والآراء و الجدل والافتراضات والتأويلات .. التي قد تزيد الأمر عسرا و تعقيدا ، إلى جوار الاستطرادات و التنبيهات و اللغات "[10] ، وهذا التطويل والإطناب و كثرة التفريعات في هذه الكتب يجعلها هدفا لذاتها ، ويفوت المقصود منها ، و هذا خروج بها عن طبيعتها التي أنشئت لها ، و من جهة أخرى يعسر على المتعلم احتواءها ودراستها كلها ، و الاشتغال بها إضاعة للعمر ، يقول ابن خلدون : " مما أضر بالناس في تحصيل العلوم و الوقوف على غاياته ، كثرة التآليف و اختلاف الاصطلاحات في التعليم ، وتعدد طرقها ، ثم مطالبة المتعلم والتلميذ باستحضار ذلك ، فيحتاج المتعلم إلى حفظها كلها أو

أكثرها و مراعاة طرقها ، و لا يف عمره فيما كتب في صناعة واحدة إذا تجرد لها فيقع القصور و لابد " [11] ، أي دون تحصيل تلك العلوم منها ، و هذا ما جعل ابن خلدون يعتبر هذه الكتب و إن كانت لها فائدة في كونها تجعل اللسان يمارس اللغة وقت قراءتها ، كما أنها مجال علمي واسع للمتخصصين الذين يريدون دراسة البلاغة في حد ذاتها ، ولكن تلك التفريعات العقلية و المنطقية قد تكون عائقا و سببا في فساد ملكة اللغة .

- **المختصرات :**

و هي التي تسمى بالمتون ، و هي كثيرة جدا ، وهذا النوع من الكتب قد يكون عائقا في اكتساب ملكة اللغة ، فهي من ناحية تسبب صعوبات علمية و تقنية ، و من ناحية أخرى لا تخضع للمقاييس العلمية مما يجعلها قاصرة عن تحقيق الأهداف المرجوة منها .

- **كثرة التآليف :**

فمكتبة البلاغة إذا جمعنا المختصرات و المطولات و الشروح و الحواشي و التقريرات و التعليقات غنية بمؤلفاتها مع اختلاف الأحجام و طرائق العرض .. و هذا و لا شك من أهم العوائق في اكتساب هذا العلم ، و لكن في الوقت ذاته له أهميته في إثراء المعارف لدى المتخصصين .

- **تعدد المذاهب :**

إذا كان لعلم النحو مدارسه و مذاهبه فإن للبلاغة مذاهب عند العلماء ، و قد ساهمت في توسيع دائرة المؤلفات ، و الاختلاف في المسائل و المناهج ؛ بل إن البلاغة أنتجت فرقا في تاريخ الأمة الإسلامية مثلما نجد في الحديث عن المجاز ، و الصفات الإلاهية و غير ذلك من المسائل العقيدية .. و المبتدئ يحول بينه و بين

اكتساب ملكة البلاغة هذا الاختلاف في المذاهب ، فالمسألة الواحدة قد تتعدد الأقوال فيها و تتضارب .

- **تعدد المناهج :**

من العوائق التي علقت بعلم البلاغة تعدد المناهج و الطرائق في التأليف لتعدد المذاهب و المدارس ، فاختلفت بذلك المصطلحات و تكاثرت .

- **الحفظ دون الفهم :**

وهو من العوائق أيضا حيث كان التعليم قديما في الجامعات العربية الزيتونة و القرويين و الأزهر وجامعات بغداد و الشام والأندلس و غيرها ، و الفكر التربوي فيها يرى أن تعلم البلاغة و الإلمام بها أو حفظها لوحدها و ترديد قواعدها و التشدق بها كفيل بإتقان ملكة التعبير .. وهذا يشبه بمن يطلب من مهندس معماري ماهر أن يحفظ قواعد و أصول تخصصه أن يبني له عمارة ، ثم لا يوفر له من مواد البناء شيئا ، أو لا يوفر القدر الكافي .. أو كحال من يحفظ قوانين المرور عن ظهر قلب ، لكنه لا يمارس السياقة العملية ، فكيف تكون النتيجة ؟ ! [12] ، فمن غير اللائق أن نطلب من المتعلم التعبير الجيد بناء على محفوظات القواعد الصماء ، و يكون في المقابل رصيده اللغوي عاجزا ، ومتن اللغة عنده فقيرا ، فما ينبغي عليه هو توظيف القواعد و فهمها ، لا حفظها عن ظهر قلب ، لا سيما ما نجده في المختصرات و المتون القديمة التي لا تعنى بالشواهد الأدبية ؛ لكن المتتبع للشروح و الحواشي يجدها غنية بالشواهد الأدبية من القرآن و الحديث و من كلام العرب شعرا و نثرا ، و هذا يساهم في اكتساب ملكة البلاغة من خلال النصوص .

- **التجريد في القواعد :**

يرى العديد من العلماء المتخصصين في علوم التربية الحديثة أنه ينبغي الابتعاد بالمتعلمين من الولدان عن التجريد ما أمكن ، والبلاغة في العصور المتأخرة ، صارت قواعد مجردة ، و اصطلاحات بعيدة عن التطبيق الفعلي للكلام ، و التعليم هو تعويد التلميذ على أن يمارس فيما بعد ما تعلمه بنفسه ؛ فبقدر ما ترسخ فيه وسائل التعليم التي تعلمها بقدر ما يتحكم في استعماله لها عندما يكبر . و التجريد لا يحقق هذا التعود ، بل يحققه التعليم الحسي أكثر ، لا سيما إذا تعلق الأمر باللغة، فممارستها وتداولها أدعى إلى ترسيخ الملكة .

هذه جملة من المظاهر و العوائق التي ميزت المنظومة التأليفية في تعليمية البلاغة ، أوردتها في محورين رئيسيين هما الجانب التاريخي لتطور التأليف في البلاغة ثم المعوقات الأساسية التي تحول دون حصول الذوق اللغوي عند المتعلم و حاجة "تعليمية اللغة "اليوم إلى إعادة النظر في تحقيق الملكة .

هوامش البحث:

---

[1] أبو الفتح عثمان ابن جني :الخصائص ، تح : محمد علي النجار ،(ج .م.ع:القاهرة ، المكتبة العلمية) ج : 1، ص : 275.

[2] ابن خلدون ، المقدمة (الدر المصون بتهذيب مقدمة ابن خلدون) ، تح : ضياء الدين رجب شهاب الدين (الشارقة : دار الفتح، ط : 1، 1995م) ص : 768.

[3] ينظر : عبد الرحمان عبد علي الهاشمي ؛ فائزة محمد فخري العزاوي ، تدريس البلاغة العربية رؤية نظرية تطبيقية محوسبة (عمان : دار المسيرة للنشر والتوزيع والطباعة ، 2005م) ص : 117

[4] ينظر :مصطفى صادق الرافعي ، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية (الجزائر : مكتبة رحاب ، د : ت) فقد بسط القول في هذا الموضوع .

[5]عبد الرحمان عبد علي الهاشمي ؛ فائزة محمد فخري العزاوي ، تدريس البلاغة العربية رؤية نظرية تطبيقية محوسبة م . س ، ص : 117 .

[6]الإيضاح ، **الخطيب القزويني** : الإيضاح في علوم البلاغة "مختصر تلخيص المفتاح ، مراجعة : عماد بسيوني زغلول (لبنان:مؤسسة الكتب الثقافية ، ط : 3) المقدمة ، بتصرف .

[7]عبد الرحمان عبد علي الهاشمي ؛ فائزة محمد فخري العزاوي ، تدريس البلاغة العربية رؤية نظرية تطبيقية محوسبة ، ص :119

[8] العالم بالتفسير و الفقه الحنفي و البلاغة ، وهو من رجال القرن التاسع الهجري ، فلقد ولد في النصف الأول منه ، ومات بعد سنة 888هـ و من آثاره : حاشية على تفسير البيضاوي، حاشية على المطول للتفتزاني ، الرسالة السمرقندية في الاستعارات ، شرح الرسالة العضدية للسيد الشريف الجرجاني ..

[9] عبد الله بن عويقل السلمي : المتون و الحواشي و التقريرات في التأليف النحوي ، مجلة الأحمدية : دار البحوت و الدراسات الإسلامية و إحياء التراث (دبي : ع : 4 ، أوت ، 1999م) . ص : 249 .

[10]محمد عيد : الملكة اللسانية في نظر ابن خلدون (القاهرة :عالم الكتب ، دط،1971) ص : 137.

[11]ابن خلدون : المقدمة ، ص : 725 .

[12]ابن حويلي الأخضر ميدني : دور المحفوظ الأدبي في نمو ملكة اللسان العربي لدى المتعلمين (الجزائر : المدرسة العليا للأساتذة ـ بوزريعةـ مجلة المبرز ،ع : 19) ص : 39.